شواهد من الحياة العلمية في وارجلان
خلال القرنين 5-6هـ/11-12م

أ. إلياس حاج عيسى
قسم التاريخ – جامعة
الجزائر

- نظام الحلقة وأعضاؤها

أ- تعريفه :

سئل أبو عمار عبد الكافي[1] من طرف تلامذته عن معنى العزاب فقال : " **أصل العزابة اشتقاقها من العزبة، والعزلة، والغربة، والتصوف، والتهجد على رؤوس الجبال، فذلك العزابة**[2]".

وعرفها البرادي في كتابه الجواهر المنتقاة، بقوله "**أول ما يتخلى عنه حلق الشعر، ولا يتركه يطول، والعزابة من شعارهم عدم الشعور، ومنها ألا يلبس ثوبا مصبوغا إلا البياض**"[3]

إن كلمة عزابه اشتقت من العزوب عن الشيء، وهو البعد عنه، أو بمعنى العزلة والعزبة، ويقصد بها الإنقطاع إلى خدمة المصلحة العامة.

وقد طبق هذا النظام في المجتمعات الإباضية ببلاد المغرب، ابتداء من أواخر القرن **4 هـ/ 10م**، في كل من **وارجلان، وجزيرة جربة، وجبال نفوسة، ومنطقة ميزاب**[4].

وتتعدد الأسباب التي من أجلها لجأت المجتمعات الإباضية في تلك المناطق إلى هذا النوع من الأنظمة، منها :

- عدم وجود أي نظام سياسي يحمي هذه المجتمعات خاصة بعد سقوط الدولة الرستمية والتي كانت تمثل بالنسبة للإباضيين ما يسمى **بإمامة الظهور**، هذا الضعف، كان سيؤدي حتما إلى تدهور المجتمع في جميع مجالات الحياة، هذا من جهة.
- ومن جهة أخرى فإن حالة الضعف جعلت الحواضر الإباضية لا تقوى على بسط قوتها على مناطق نفوذها أمام ظروف كانت أقوى منها، تتمثل أساسا في ظهور دول مخالفة لها في المذهب، مثل **الدولة الفاطمية الشيعية، والدولة الصنهاجية المالكية**، ضف إلى ذلك الهجرات الهلالية، وما سببته من إعادة توزيع لمناطق النفود ومعايير القوى في بلاد المغرب. من هذا المنطلق، كان لابد من إيجاد تنظيم، يكون بديلا عن حكم الإمام في المجتمع الإباضي، ويحقق الولاء المذهبي لكل فرد إباضي ويؤمن المجتمعات الإباضية من خطر الزوال. فكان هذا النظام الذي وضع قوانينه الأولى **الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي** في نهاية القرن **4 هـ / 10** م[5]. فما هي حقيقة هذا النظام ؟

أ- عضاء الحلقة وصلاحياتهم

ينقسم أعضاء الحلقة إلى صنفين :

الأول : الآمر

والثاني : المأمور.

والآمر إثنان : **شيخ الحلقة**، **والعريف**.

والعريف نوعان : منفرد، وغير منفرد.

والمنفرد إثنان : عريف أوقات الختمات والنوم، وعريف الطعام.

أما **غير المنفرد** فهم : **العرفاء من حملة القران، وعريف على أوقات الدراسة.**

أما **المأمور** فهم **ثلاثة : طلبة القرآن، وطلبة فنون العلم والأدب، والعاجزون.** ولكل صنف منهم أوقات يجلسون فيها إلى الشيخ، منها الجلوس بعد ختم القرآن للجواب عن الأسئلة، ويكون في يوم الجمعة حيث يذكر شيء من التذكير والوعظ، كما يقوم في ثلث الليل الأخير فيأتي إلى موضع الإستفتاح ويبتدئ من حيث انتهى مجلس الليلة التي قبله، وينبه كل نائم، فإذا أذن مؤذن الصبح قطعوا القراءة.

ويقوم الشيخ بتقليد العرفاء ممن حسنت أخلاقهم، ومن كان في أحواله نقص تعرض للعقاب "الخطة" إن كان العيب كبيرا، أو إلى التأديب إن كان صغيرا، وتكون هناك زاوية خاصة للتأديب[6].

يوضح البرادي بشكل دقيق صلاحيات شيخ الحلقة بقوله : "**ويشاور الشيخ في عابر السبيل، وطالب العلم الجديد للإقامة، ويستأذن في شأنهما، وإلى الشيخ يرجع تولية عرفاء الأوقات. والإذن فيما يشترى، أو يباع، أو يدخر،....، وهو الحكم بين المختلفين، والمنصف بين المتباغضين**[7]."

وعن مهام العريف المكلف بالختمات والأوقات، يقول : "يتعلق به ترصد حزب الغد وفي المجلس الذي يعقبه المذاكرة ،فإذا أكمل دعا جميع من في المسجد إلى الختمة ويؤمن أهل المجلس على دعائه، ثم يدعو أسنهم ويدور الدعاء. فإذا كان وقت الضحى نادى بنوم الهاجرة، فإذا ناموا وتكلم أحد بحيث يؤذي النائمين، فالخطة وأن يصبح النوم حتميا، إذا تركه ذريعة لترك القيام بالليل. وعند غروب الشمس نادى بالختمة فيجتمعون، ثم صلوا صلاة العشاء، وقرءوا ما يسر الله وحان وقت النوم، نادى بالدعاء وهي ختمة، والمتعارف أن حضورها على الكفاية، ثم يدعوا وينادي بالنوم، فإذا ناموا وتكلم أحد أو تحرك فالخطة، إلا أن يكون في مطالعة كتاب بعيدا عن النائمين"[8].

أما فيما يخص العريف المكلف بالطعام، فيقول عنه : "فالعزابي يحافظ في كل الحالات على آدابه، بحيث يحفزهم العريف في ملازمة التحفظ وإفراط الحذر وجعل الشعار بينهم حسان أو حسان بن ثابت، أي حسنوا آدابكم وأخلاقكم، أما إذا كان في محل عزابي يميلون إلى ضرب من الإدلال وينبسطون ويحسنون الظنون، فلا يتحشمون في اقتراح طيب الطعام وازدياد الإدم. وفي كلا الحالتين على العريف أن يرتب جلوسهم، فإذا اعتدل جلوسهم دعا بالماء وغسلوا[9]".

وإجمالا فإن صلاحية ومهام العزابة متعددة، منها :

1- الإشراف العام على المجتمع، وهي الوظيفة البديلة لمهام الإمام، ويقوم بها شيخ الحلقة.

2- القضاء فيما يقع بين الناس من مشاكل، ورد الحقوق وتأديب العصاة، وحفظ الأموال.

3- الإشراف على الأوقاف وتنميتها.

4- تفقد أحوال الناس لمساعدة المحتاجين سواء من ميزانية الحلقة، أو بتكليف الموسرين.

5- الإشراف على التعليم ومحاولة جعله مجانا لكل الأطفال، ورصد جزء من ميزانية الحلقة لمجال التعليم، وإعانة الطلبة الفقراء.

6- الإشراف على العلاقات الخارجية للمجتمع الوارجلاني، فيما بينه وبين المجتمعات الأخرى التي تدين بنفس المذهب، في **ميزاب، وجربة، ونفوسة**، وحتى في المشرق بعمان. والعلاقة مع المجتمعات والدول من مذاهب أخرى، سواء في بلاد المغرب ،أو الأندلس،أو بلاد المشرق. لهذا يمكن الجزم بأن حلقة العزابة، كانت بمثابة حكومة مستقلة تشرف على شؤون المجتمع، يرأسها شيخ العزابة، وتتألف من عدة وزارات أو دواوين، منها، العدل، والخزانة، والأوقاف، والشؤون الاجتماعية، والتعليم، والخارجية[10].

2/ النظام التعليمي في وارجلان : طرقه ومؤسساته

أنشأ أتباع المذهب الإباضي كتاتيب خاصة بهم، يدرس فيها أطفالهم القرءان وقواعد اللغة العربية، أطلق عليها إسم "**دور**

القرءان". وقد كان أتباع الإباضية يندمجون بمخالفيهم ويتعلمون منهم، فلقد كان أطفالهم يتلقون تعليمهم الإبتدائي في الكتاتيب العامة، وفيها يدرسون القرءان، وقواعد اللغة العربية، لكن ومع ازدياد أعدادهم عملوا على إنشاء كتاتيب خاصة بهم[11].

أ- دور القرءان

كانت مهام هذه الدور، تدريس مبادئ العقيدة من منظور إباضي، وهي تشمل بالأساس دراسة القرآن وقواعد اللغة العربية، ويدرس في هذه الدور أبناء المذهب الإباضي، وربما كان معهم تلاميذ من مذاهب أخرى[12]. ولم تكن دور القرءان تمثل مكانا معلوما، فأتباع المذهب الإباضي في وارجلان قد انقلبوا إلى مرحلة الكتمان، بعد سقوط الدولة الرستمية، والتي كانت تمثل لهم مرحلة الظهور. وبالتالي كانوا يمارسون نشاطهم التعليمي بعيدا عن أعين السلطان، وكانوا يدرسون إما :

- **تحت الأشجار في البرية** : وهنا يروي لنا الدرجيني أنه رأى حلقتين للطلبة تحت شجرتين عظيمتين، فكان جلوس طلبة الفقه عند الشجرة القبلية، وطلبة الأصول عند الشجرة الجوفية.
- **تحت عريش** : ويسرد الدر جيني دائما في طبقاته أن أحد شيوخ العزابة، وهو أبو الربيع، انتقل بتلاميذه اللذين يقرؤون علم الكلام إلى موضع **بتموسة**، وكانوا هناك في عريش عملوه عند عيون تمولسة، فكثروا، واجتهدوا، وحسنت أحوالهم.

- في غار : إذا كان عدد الطلاب متزايدا، وخيف عليهم من أعين الجند. يقول الدر جيني في وصف هذه الحالة : "**ينقلون اجتماعهم للدرس في غار هناك، ثم إذا كثر الطلبة وضاق عليهم الغار، فانتقلت منهم جماعة إلى غار آخر، فكان الشيخ ليلة عند هؤلاء، وليلة عند هؤلاء**"[13].

وعندما تقوى الدعوة الإباضية في منطقة ما، فإن أتباع المذهب يأسسون مسجدا لأنفسهم، يعقدون فيها حلقاتهم بصورة علنية.

هذا النوع من الدور هو شبيه بالمدارس المتنقلة، يدرس فيها الأطفال ما لزم من العبادات، من طهارة، وصلاة، وصوم[14]، وتكون دراسة القرءان، كما يلي :

1- بتلاوته وحفظ بعض آياته وسوره، ويحدث أن يحفظ بعض الأطفال القرآن كاملا.
2- ويتلقون مبادئ القراءة والكتابة والحساب وبعض الشعر.
3- الإلمام بأركان الإسلام، من صلاة وصوم، ومختلف الواجبات الدينية التي لا يسع لمسلم جهلها.

وحول **تدريس القرآن**، طرحت إشكالية تعليم القرءان بالأجرة في وارجلان، وعن هذه القضية يقول الدرجيني : "**واجتمعت بوارجلان، بالمسجد الكبير جماعة فيها أهل الدعوة، منهم، أبو عبد الله محمد بن بكر، وبن سوردين، وبن زورستن، وعبد الله المدوني، فسألهم رجل عن مسألة، وهي الأجرة، هل تؤدى على تعليم**

القرءان أم لا، فتدافعوا السؤال بينهم، فقال عبد الله المدوني لأبي عبد الله، أجب الرجل عن مسألته، فقال له، نعم تؤخذ الأجرة على تعليم القرآن. قلت وهذا الجواب غير معروف بالمذهب، لكن إذا جاز لراعي البقر الأجرة وهو يأخذها على إصلاح أحوال الدنيا، فالذي يأخذها بسبب إصلاح الآخرة أولى."[15]

ب- المجالس السرية

هي مجالس تعليم سرية أنشاها أتباع المذهب الإباضي في مرحلة الكتمان، خاصة في المشرق الإسلامي، على غرار الحلقات السرية في مدينة البصرة في عهد **أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة**. وقد استفاد إباضية المغرب من هذه المجالس بإيفاد أولى البعثات إلى بلاد المشرق الإسلامي، وعند عودتها، بدأت تنتظم الحلقات[16] في بلاد المغرب. والتي يسميها **علي يحي معمر** بـ : "**المدارس**".[17]

فظهرت مدارس **أبي درار الغدامسي، وعاصم السدراتي، وأبي داود القبلي، وعبد الرحمن بن رستم**، قبل تأسيسه تاهرت[18].

وبعد إعلان إمامة الظهور في بلاد المغرب بقيام الدولة الرستمية، تحولت المجالس السرية إلى حلقات دروس علنية في المساجد[19]. وعندما سقطت الدولة الرستمية، عادت المدارس إلى السرية، باستثناء المناطق ذات الغالبية الإباضية، والبعيدة عن أعين السلاطين، والأمراء، ومن يمثلهم. من بين تلك المناطق، توجد **وارجلان، ونفوسة، وجربه**، وهي حواضر تتمتع بقدر معتبر من الحرية الفكرية والدينية.

فإلى جانب المسجد، فتحت المدارس، والداخليات، وأدخل نظام المدارس المتنقلة، التي وفرت الفرص أمام طلبة العلم، ومن هذه المدارس ما يضم أقساما داخلية يقدم فيها المأكل، والمأوى للطلبة القادمين من مناطق بعيدة عن وارجلان. كما تقدم إعانات مالية للطلبة المعوزين[20]، تساعدهم على تنظيم أحوالهم، وشراء الكتب والإهتمام أكثر بدروسهم.

كما تشير بعض الدراسات أن الإهتمام لم يكن مقتصرا على الذكور فقط، فقد فتحت مدارس خاصة بالبنات، في بعضها أقسام داخلية لإيواء الطالبات من الأماكن البعيدة[21].

وكان هذا النوع من المدارس يهدف إلى تحصيل علمي ومعرفي أفضل، بعيدا عن مشاغل وضوضاء المدينة، كما أنها تضم طلبة من البدو، والهدف هو محاربة الجهل عند البدو وتقديم خدمات تعليمية للمناطق النائية[22].

ج- الموارد المالية

أولت المجتمعات الإسلامية عموما، ومن بينها المجتمعات الإباضية اهتماما بالغا لمسألة جمع الأموال لخدمة المصالح العامة للمجتمع، متأثرا بذلك بفكرة "**بيوت المال**"، والتي عرفها المسلمون في السنوات الأولى من وجودهم، وقد اعتمد القائمون على تنظيم هذه العملية في المجتمع الوارجلاني على معيارين أساسيين هما :

- أن يكون المسؤولون على جمع وصرف الأموال، في منتهى العفة والنزاهة، لا يفكرون أبدا في مد أيديهم إلى المال المؤتمنين عليه.

فاستيفاء هذا الشرط، يعني ثقة الرعية فيهم، ويعني أن المال سيصرف في مكانه ويستفيد منه المجتمع، وبالتالي تقتنع مختلف فئات المجتمع بنجاعة الفكرة.

- أن جمع المال يكون طوعا لا إكراها، وهذا الشرط يحقق الإقبال أكثر ،على خلاف الجباية الإجبارية الحديثة، والتي تكون السبب في ظهور مايسمى "**بالتهرب الجبائي**". كانت النتيجة أن معظم شرائح المجتمع تشارك في التبرعات، كل حسب إمكانياته.

ولقد طبق أتباع المذهب الإباضي فكرة "**بيت المال**" منذ عهد أبي عبيدة مسلم في البصرة، لمساعدة الفقراء والدعاة في الأمصار. وكانت الموارد تتمثل أساسا فيما يلي :

- **ضرائب** يفرضها الإمام على الأتباع، كل حسب مقدرته، وهذا النوع من الجباية كان متبعا في البصرة في عهد الأئمة الأوائل منذ عهد **الإمام جابر بن زيد، وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة**، ولم تكن تتبع هذه الطريقة إلا عند الحاجة[23].
- **التبرعات** : يقدمها الأغنياء خاصة من كبار التجار[24]، خاصة الذين تجاوزت تجارتهم محيط وارجلان، إلى بلاد السودان.

ويتم صرف موارد بيت المال، في الأوجه التالية :

- **الفقراء** : حيث توزع عليهم الأموال والأطعمة عند الحاجة وفي المناسبات، وعن هذه الفكرة نسوق قولا للشماخي، يقول فيه : "**سمعت بعض المشايخ ممن أدركت يقولون : إنا لنذكر إذا دخل شعبان أن كان للفقراء من المسلمين لتأتيهم الأحمال بالسويق والتمر وما يصلحهم بشهر رمضان، ولا يعلمون من بعثها بها**".
- **المساعدات المالية** : كانت تأتي من أتباع المذهب من بلاد المشرق الإسلامي (من البصرة، ومن عمان خاصة)، عندما كان إباضية المغرب يؤسسون دولتهم الفتية، وهي الدولة الرستمية. لكن وبعد أن ازدهرت الدولة إقتصاديا، أصبحت هي من يبعث الأحمال إلى بلاد المشرق.
- **التعليم** : كنا أشرنا أن المدارس في وارجلان وفي التجمعات الإباضية الأخرى توفر نظاما داخليا للطلبة المعوزين، يجدون فيه المأكل، والمأوى، في حين كان الطلبة الأغنياء يمونون أمورهم بأنفسهم[25].

ونجد في كتب السير والطبقات، ذكر لمشايخ أغنياء، كانوا ينفقون على تلاميذهم وطلابهم، خاصة على الفقراء منهم، لمساعدتهم على التحصيل العلمي.

3- الحلقة وتنظيم التعليم وأساليبه

بعد انهيار الدولة الرسمية، وضع الإباضية في وارجلان، وفي مواطن أخرى نظاما تربويا، يتوافق مع مرحلة الكتمان التي انتقلوا

إليها. هذا النظام هو نظام العزابة[26]. فالعزابة كانت تعني في بداياتها تقنين النظام التعليمي. هذا الأخير كان متواجدا في مواطن الإباضية. ثم جاء **أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي** في أواخر القرن **4 هـ / 10 م**، حرره على شكل قوانين لتقنين النظام التعليمي، وحاول أن يطبقه في المواطن التي يتواجد فيها أتباع المذهب الإباضي، ثم استحسنت العامة هذا النظام فأصبح يشمل مجالات أخرى، منها :

- **السياسية**
- **الإجتماعية**
- **الإقتصادية**

وقبلها كان ينظم فقط المجالين الديني والفكري. ثم أصبحت حلقة العزابة الممثل الرسمي والوحيد للمجتمع الإباضي في وارجلان، وفي غيرها من المواطن، في العصر الوسيط. لكن ما يهمنا الآن في هدا الفصل، هو :

كيف استطاعت حلقة العزابة أن تنظم مجال التعليم، وما هي مظاهره :

أ) تنظيم التعليم في حلقة العزابة :

تتألف الهيئة الإدارية والتعليمية التي وضعها نظام العزابة من :

1 - شيخ العزابة أو مستشارة

2- العرفاء

و هؤلاء يطلق عليهم في مصطلح الحلقة : **الآمرون**[27]

أما العرفاء فينقسمون على نوعين :

أ- **عريف منفرد** : وهو عريف أوقات الختمات، والنوم، وعريف الطعام.

ب- **عريف غير منفرد** : هم العرفاء من حملة القرءان، وعريف على أوقات الدراسة، يكون واحدا أو أكثر، وذلك على حسب الحاجة إليهم[28].

مهام الهيئة الإدارية للعزابة :

المقصود بالهيئة الإدارية في عرف العزابة، هو شيخ العزابة وأعضاء الحلقة، فهو رئيس مجلس العزابة، والمسؤول الإداري عن التعليم في مدارس العزابة[29]، لذلك فصلاحياته واسعة، وتتمثل في تعيين العرفاء وفصلهم وتحديد مهامهم، وكذا :

1. تقرير المناهج التربوية للمراحل الدراسية العليا.
2. قبول التلاميذ في الفصول الدراسية أو رفضهم.
3. يعقد ندوات لصالح طلبة الصفوف الدراسية العليا.
4. يجيب عن أسئلة الطلبة بعد انتهاء أوقات الدروس.
5. يجتمع بتلاميذ المدرسة يومي الإثنين والخميس، ويلقي عليهم دروسا تتعلق بالطهارة، والعبادات، والأخلاق.
6. صاحب الفصل في قبول عابري السبيل، وطالب العلم الجديد للإقامة.
7. وهو صاحب الإذن فيما يشترى أو يباع أو يذخر

8. وهو صاحب الإذن كذلك في التصرف في الغلات، والأوقاف، وتقسيمها لمن يستحقها
9. وهو صاحب الحكم بين المختلفين والمنصف بين المتباغضين [30].

ب) مهام الهيئة التعليمية :

تتمثل هذه الهيئة في العرفاء بقسميهم، المنفرد، وغير المنفرد، وهم مساعدين لشيخ الحلقة.

وكل عريف له دور داخل المنظومة التعليمية، ونبدأ بـ :

عريف الختمات وأوقات النوم

يمتد عمله من الصباح إلى الليل، ويسهر على تأمين حسن العمل التربوي في المدرسة. ويتبع في ذلك نظاما صارما، بحيث أن كل مخالفة من طرف الطالب تعرضه لنوع معين من العقوبة، وعمله محدد، ومنفصل، ومنتظم. ويتركز العمل التربوي داخل المدرسة عليه، لذا يمكن إعتباره أبرز شخصية بعد شيخ الحلقة. أما عمله فيتمثل أساسا فيما يلي :

- إعلان بدء الدراسة الصباحية.
- إعلان إنتهاء الدراسة الصباحية، حيث يدعو إلى الختمة، ويكون الدعاء بين الطلبة بالدور بداية بأسنهم، ويكون حضور دعاء الصباح إجباريا، أي أن المتغيب من الطلبة يتعرض للعقوبة.

- يدعو الطلاب بعد تناول وجبة الغذاء إلى نوم الهاجرة، وهو إجباري كذلك، فالمتغيب أو الذي يتكلم أثناء نوم زملاءه، ويؤذيهم، يتعرض كذلك للعقوبة.
- يدعو إلى ختمة بعد الصلاة المغرب، يجتمعون في حلقات يتراوح عدد كل حلقة من 3 إلى 10 طلاب.
- يترك الطلاب بعد صلاة العشاء في مراجعة حرة، مدتها ليست طويلة.
- يدعو الطلاب بعد الاستراحة إلى ختمة، وبعد دعاء الختمة يلقي أحد الطلاب الفصحاء كلمة توجيهية تكون مستوحاة من كتاب الله، وحضور الطلبة هنا ليس إجباريا، وبعد الكلمة يختم بالدعاء، ويقوم الطلبة للنوم[31].

عريف الطعام :

عمله محدد ومنظم وله حدود يقف عندها[32]، وتتلخص مهامه في:

- تنظيم جلوس الطلبة عند الأكل، سواء كانوا داخل المدرسة، أو في ضيافة، أو في رحلة
- يتفقد الحاضر من الغائب، ويستفسر عن سبب الغياب، فإن كان بلا عذر، فالعقاب.
- يتأكد أن الطلبة كلهم بلباس الحلقة المتعارف عليه.
- يلتزم الطلبة بقواعد سلوكية قبل، وأثناء، وبعد الأكل، ويكون ذلك تحت مراقبة العريف، وهي إجمالا :

- يضع كل طالب طرفي ثوبه على صدره، لتبرز يداه.
- يطلب العريف الماء لكي يغسل الطلبة أيديهم.
- يراقب العريف سلوك الطالب أثناء الأكل، كأن يأكل أحدهم بنهم، أو أن يأكل مما يلي غيره، وليس مما يليه.
- تضعف مراقبة العريف عليهم، إذا كان الطلاب في ضيافة زميلا لهم، فلا بأس أن يميلوا إلى قليل من الإدلال، فلا يحتشمون في اقتراح طيب الطعام وطلب الزيادة.
- لا يغادر الطالب - بعد انتهاء الطعام - مكانه إلا إذا أعلن العريف ذلك.
- يطلب العريف بعد الأكل الإنصات للدعاء شكرا لله، فيطلب ذلك من أكبر الطلاب سنا.
- ومن صلاحياته الإشراف على توزيع الهدايا التي يتبرع بها المحسنون.

و للطعام أوقات معلومة :

فهناك وجبتين أساسيتين : وجبة الغذاء، في الظهر، ووجبة العشاء في المساء.

وهناك وجبات إضافية. وجبة الضحى تكون وقت الضحى بعد كتابة الألواح، وهناك وجبة العصر، تكون بعد الصلاة، أما طعام الوجبات الإضافية فهو التمر أحيانا، والفاكهة أحيانا أخرى[33].

عريف تحفيظ القرآن :

هو الأستاذ المكلف بتحفيظ القرآن الكريم للطلاب، لذلك يجب أن يكون حافظا لكتاب الله، عارفا برسمه، محكما لتلاوته، عالما بتفسير معانيه، ضليعا في اللغة العربية، وفنونها أما مهمته فهي :

- الإشراف على عدد من التلاميذ يتراوح عددهم من 2 إلى 10، وربما أكثر في حالات الإكتظاظ.
- لا ينتقل تلميذ من حلقة أستاذه إلى حلقة أخرى، إلا بإذن أستاذه.

و يكون التدريس كما يلي :

أ- يملي الآيات على التلاميذ فيكتبونها على الألواح.

ب- بعد أن تجف الألواح يخبر نقيب التلاميذ الأستاذ ليصحح لهم.

ج- يطلب منهم أن يحفظوا ما كتبوه غيبا لليوم التالي.

د- يحث النقيب زملاءه التلاميذ على الحفظ، ويجمعهم في اليوم الموالي في الأماكن المخصصة للتدريس، وفي الأوقات المحددة، ثم يستدعي النقيب العريف ليبدأ دروسه، وقبل أن يبدأ، يسمع من التلاميذ ما أخذوه بالأمس[34].

يعاقب التلميذ المقصر الذي لا يحفظ دروسه جيدا، فإن كان مبتدئا سمح له بخمسة عشرات، وإذا كان كبيرا سمح له بثلاثة عشرات، وإذا كان معيدا فيسمح له عشرة واحدة.

أما العقوبات فهي متنوعة على حسب الأخطاء :

أ- التلميذ المبتديء يعاقب بالوقوف في الزاوية والجلد، أما الكبير فالخطة والطرد[35].

ب- لا يطبق العقاب الجسدي إلا بعد التوبيخ وتنبيه التلميذ إلى ضرورة الحفظ.

ج- إذا كان التلميذ لا يحفظ جيدا لحب الكسل وترك المدرسة، وكان ذكيا، فإنه يعزر، أما إذا كان ضعفه لعلة في فهمه، يعذر ويسمح له بالإعادة.

د- يخبر العريف تلاميذه فيما حفظوه من أسبوع لأسبوع.

هـ- يضع العريف تقريرا مفصلا، عن كل تلميذ، وعن الحالات المستعصية، ويقدمها للشيخ عند الإجتماع به كل أسبوع.

عريف أوقات الدراسة

مهمته :

- يشرف على التنظيم،والسير الحسن لحلقات الدراسة، ويسجل أسماءالطلبة الغائبين، والمتأخرين من غير عذر.
- يتولى عقاب الطلبة المتغيبين بدون عذر، أو إذا اشتغل الطالب بما يلهيه عن الدرس، أتأخر في النهوض من النوم بغير عذر.
- إذا غاب بين صلاتي الجمعة والعصر، عن حضور استماع قراءة كتاب المواعظ.

إذ تناول الطعام إختيارا في غير أوقاته المحددة[36].

❖ **الجدول الزمني :**

يكون الجدول اليومي للتلاميذ، والطلاب ثريا قليل الفراغ، وهو كما يلي :

- يستيقظ الطلاب ويستفتحون بالقران الكريم.
- يصلون الفجر جماعة، وبعد الصلاة يتناولون الفطور.
- ينتقل الطلاب إلى الحلقات الدراسية، ويمتد توقيتها إلى ما بعد الضحى.
- اختتام الدراسة الصباحية بالدعاء.
- صلاة الضحى.
- تناول الوجبة الإضافية الصباحية.
- يصلون صلاة الظهر جماعة.
- تناول الغذاء، ثم بعده نوم الهاجرة.
- الإستيقاظ من النوم، وصلاة العصر جماعة.
- المذاكرة والدرس بين صلاتي العصر والمغرب.
- توجد أوقات للراحة تكون بعد الانتهاء من الدروس، وتكون الراحة عموما في مواضع المياه والأشجار.
- صلاة المغرب جماعة.
- حضور قراءة القرآن بعد صلاة المغرب، إلى غاية صلاة العشاء، وبعد الصلاة تكون الختمة
- الذهاب إلى النوم.

ج) الطلبة في مدارس العزابة

يتوزع الطلبة في مدارس العزابة على **ثلاثة مراحل** :

❖ **المرحلة الأولى** : وهي الكتاتيب، وتضم تلاميذا من صغار السن، وهم المبتدئين، يتعلمون تلاوة وحفظ القران، ومبادئ الإسلام من طهارة، وصلاة، بالإضافة إلى مبادئ اللغة العربية[37].

وتكون **سير الدراسة** في هذه المرحلة، كما يلي :

1- لايجبر التلاميذ بارتداء زي موحد.
2- يسمح للتلاميذ خلال مدة حفظهم للقران الكريم، بالمأكل، والمأوى في المدرسة.
3- يحفظ التلميذ القرآن الكريم على يد العريف. يخبر هذا الأخير مجلس العزابة الذي يحدد موعدا لاختبار التلميذ في ذلك[38].
4- يسمح شيخ العزابة بعد أخذ رأي أعضاء المجلس، بترقية التلميذ إلى مستوى أعلى.
5- يقيم أهل التلميذ وليمة لأعضاء الحلقة، والتلاميذ بمناسبة نجاح إبنهم.

❖ **المرحلة الثانية** : وتضم طلبة العلوم والآداب، وطلبة هذه المرحلة هم الذين تجاوزوا المرحلة السابقة، ومن الشروط التي يجب أن يلتزم بها الطالب في هذه المرحلة بالإضافة الى حفظه القران :

1- أن يكون حسن السيرة.
2- أن يكون محافظا على دينه معمرا للمساجد.
3- أن يلتزم باللباس الرسمي الموحد للطلاب.

ويوزع الطلبة في هذه المرحلة إلى مجموعات، حسب ميولاتهم، ودرجة ذكاءهم وهم :

أ- **أصحاب اللويحات** : وهم الطلبة الذين انتقلوا من المرحلة الأولى إلى الثانية.

ب- **أصحاب الكتب** : وهم الطلبة الذين حصلوا على درجة متقدمة من العلوم. لهم عدة امتيازات هي :

1- أن لهم ناد خاص بهم لا يجوز لأحد أن يدخله غيرهم.

2- أن لهم مكتبة خاصة بهم، تضم كتبا يحتاجون إليها.

3 - لهم الحق في حضور دروس شيخ العزابة، أو عضو من أعضاء الحلقة.

4- يستقبلون العلماء في ناديهم، للإستفادة منهم[39].

ويفرض على الطلبة في هذه المرحلة المواظبة على حضور الدروس، والختمات.

❖ **المرحلة الثالثة** : وهي تضم العاجزون، بمفهوم "**الدرجيني**"، وكذا "**البرادي**". وهم الطرش، والعميان، والزمنا، والهرمون، وذو العقول القاصرة[40].

ومع ذلك فلا يطردون من مجلس العزابة إذا كان بمقدورهم الإصغاء، والإستماع ليحصلوا الفوائد، والأخلاق الحميدة. وعليهم واجبات تتمثل في حفظ السير، والمحافظة على الأوقات قدر

استطاعتهم، وإن اجتهدوا أكثر ربما ظفروا ببعض ما أرادوا، وهم في معظم الأحوال معذورون. بحيث أن :

1- الزمنى، والعميان، نطق بعذرهم القرآن.

2- وأما القاصر الفهم فمنهم التارك للعلوم عمدا، فهو يلام. ومنهم الميؤوس من حالته.

وقد عايش **الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني** هذه الفئة، حينما دخل حلقة وارجلان سنة **(616هـ/1219م)**، وهو حديث السن، فكان يزدري بمعظمهم، وشعاره في العلم قوله : " **وكنت أعجب ممن ينفرد فلا يجتهد، ومن يخلو بالمفيد كيف لا يستفيد** ". لكنه عندما تقدم في السن أصبح يستغفر الله من ذلك.

وقد قدم لنا الدرجيني شهادات قيمة عن هذه الفئة. ذكر منهم رجل يسمى "**أبا دو نواس**" من نفزاوة. يقول : " **سبقني إلى الحلقة بأعوام، وجدت لوحه في سورة الفيل، ومات في سنة (617هـ /1220م)، ولم يستكمل سورة أخرى**"[41].

و يقول عن شخص آخر، يسمى **يزمر المصبعي** : "**كنت سمعت به قبل دخولي وارجلان، فوجدته في وارجلان وفي لوحه أوامر بالتقوى، يكررها أياما كثيرة، وأقمت بوارجلان حولين كاملين وشهرين، ثم انصرفت، وتركت في لوحه، والضحى، وقد سبقني إلى الحلقة بستة أعوام، أو ثمانية** ".

وذكر شخصا آخر يدعى **سليمان بن حريز** قائلا عنه : "**لم يزل يكرر سورة الأنبياء مدة إقامتي بوارجلان، وخرجت ولوحه فيها** "[42].

ولهذا النوع من الطلبة الحق في المأوى، والمأكل، وعليهم واجبات، منها : خدمة مجلس العزابة، وأعضاء الحلقة. تحضير الطعام، وحراسة الأموال، وحفظ الطرقات من اللصوص. والقيام إجمالا بما يطلبه منهم المجلس[43].

يقول **البرادي** في هذا الشأن : "**وينبغي أن تكون خدمة الطعام من هؤلاء الذين لم يفتح الله عليهم بشيء، ولم يشرح صدورهم للعلم، لكن ينفعهم الله بخدمة أهل الخير، ويوفيهم أجورهم.** "[44]

يبدو أن مدارس العزابة قد سبقت مدارس التربية الحديثة في كثير من الأمور، منها : توزيع الطلاب في حلقات على حسب نموهم الزمني، والعقلي. فما زالت الكثير من المدارس الحديثة توزع الطلاب في مراحل تعليمية، وفق العمر الزمني. إلا أنها لم تتمكن من وضع المناهج التي توزع الطلاب وفق العمر العقلي.

إن الإهتمام بالطلبة العجزة في العصر الوسيط عند مدارس العزابة، هو أشبه بمدرسة الصم، والبكم، والعميان في العصر الحديث[45].

د)- التأديب في مجالس العزابة :

طبقت مدارس العزابة في وارجلان, وفي غيرها من المراكز الإباضية ببلاد المغرب طرقا مختلفة للتأديب. وهو القصاص حسب الذنب، وحددت العقوبات التي تستوجب القصاص كما يلي :

1- التأخر في حضور حلقات الدروس، أو التغيب.

2- التقصير في تحصيل الدروس.

3- عدم الإلتزام بالواجبات التي يطلبها العريف.

4- إثارة الفوضى أثناء إلقاء الدروس، أو في وقت الظهيرة، أو في الليل.

يقول البرادي : " **فإذا كان وقت الضحى نادى بنوم الهاجرة، فإذا ناموا، وتكلم أحد بحيث يؤدي النائمين فالخطة. بل قد يصبح النوم حتميا، إذا تركه ذريعة لترك القيام بالليل**"[46].

5- عدم الإلتزام بختمة الصباح، والمساء، أو بمواعيد الطعام، والنوم، أو حضور دروس الإثنين، والخميس، أو أوقات الصلاة، والصوم، والصوم المستحب.

6- عدم الإلتزام بارتداء الزي الرسمي للعزابة، بالنسبة لطلبة المرحلة الثانية.

7- عدم الإلتزام بآداب الطعام، لذلك كان العريف المتكفل بالطعام، له حدود يقف عندها. فالعزابي يحافظ في كل الحالات على آدابه، بحيث يحفزهم العريف في ملازمة التحفظ والإفراط في الحذر، وجعل الشعار بينهم "**حسان**"، أو "**حسان بن ثابث**"، أي أحسنوا آدابكم، وأخلاقكم[47].

8- عدم الإخلال بآداب الطريق، بأن لايتكبر على متواضع، ولا يتواضع لمتكبر، وأن لا يكثر من التصرف في الطرقات، والأسواق[48]، ولا يخالط أهل الدنيا إلا إذا دعت ضرورة.

9- إفشاء الأسرار المدرسية. وهناك مخالفات أخرى تستوجب أنواعا مختلفة من العقاب، كالهجران، أو البراءة[49].

1- أما العقوبات المعنوية فتتمثل في :

أ- الإشارة بلطف أو التوبيخ الخفيف، إذا كان الذنب صغيرا، ومن غير قصد.

ب- التوبيخ بعيدا عن أعين زملاءه الطلبة، إذا كان الذنب صدر منه لأول مرة.

ج- التعزير أمام الطلاب، إذا تكرر الخطأ من طرف الطالب.

د- الزاوية، وهي حبس التلميذ في ركن من أركان المدرسة، والدليل قول البرادي : "**ويختارون زاوية تكون موضعا لتأديبهم**"[50].

فالمقصود هنا بالزاوية، المكان المخصص للتأديب هـ-**الحرمان** : وهو حرمان الطالب من الوجبات الإضافية، بعد وقتي الضحى، والعصر.

و- الحبس في زاوية معينة من المدرسة.

إن التأديب المعنوي في مدارس العزابة يتوافق مع مفهوم التربية الحديثة، حيث يتم اتباع مبدأ، التدرج في التأديب[51].

2- **العقوبات الجسدية :**

وتتمثل فيما يلي :

أ- **الجلد** : والجلد هنا لا يقصد به تطبيق الحد الشرعي، ويكون الجلد بحسب الخطأ، حيث يحبس الطالب، ويجلد.

ب- **الطرد** : ويكون إما مؤقتا أو الهجران والإبعاد، وذلك متى أجرم جرما، أو ظهرت عليه خزية. فإنه يهجره كل أهل الصلاح. فلا يكلم، ولا يحضر جماعة، ولا يؤاكل، ولا يجالس حتى يتوب، ويستغفر فيقبل منه، ويرجع إلى جماعة المسلمين. وهذا النوع من العقوبات لا يشمل فقط طلبة المدارس، بل حتى العامة من الناس عند ارتكابهم للمخالفات الشرعية. يعتبر هذا النوع من العقاب من أشد الأساليب تأثيرا على نفسية المذنب[52].

ج- **الطرد الدائم والبراءة** : ويلازم هذا العقاب المذنب طوال حياته، وتكون هذه الحالة، عندما يعظم الجرم، ويصر المجرم عليه ويرفض الإستغفار.

وغالبا ما تسلط هذه العقوبة على مرتكب الكبيرة، الذي لا يتوب، مثل تارك الصلاة، والزاني، والسارق، وشارب الخمر[53].

هـ-**الإمتحانات في مدارس العزابة** : لا تشبه الإمتحانات المعروفة في العصر الحديث والمعاصر، بل هي عبارة عن مراقبة مستمرة، تكون يومية، وأسبوعية :

1- **اليومية**، ويشرف عليها :

أ- العريف عند إبتداء الدروس، يتأكد خلالها من حفظ الطلبة قبل الإنتقال إلى الدرس الثاني، واختبار معلومات الطلبة أثناء تقديم الوجبات الإضافية، عند وقتي الضحى، والعصر، بهدف ترسيخ المعلومات.

ب-**شيخ العزابة** : ويحضر عند موعد الختمات في الصباح، والمساء، للتأكد من مستوى العلمي للطلاب[54].

2- الإمتحانات الأسبوعية : وتكون يومي الإثنين، والخميس، وكذا الجمعة. يقول البرادي : " **ومنها أن يجمعهم يوم الجمعة، وكذلك في يوم الإثنين، والخميس، فيحض ويذكر، ويورد أمثالا حكمية، وحكايات زهدية، ويسأل عن أحوال الحاضرين، ويقلد من العرفاء من حمدت أخلاقه**"[55].

3-الإمتحانات النهائية : وتكون في نهاية السنة الدراسية، وبعدها ينتقل التلميذ أو الطالب من مرحلة إلى أخرى، في حالة نجاحه.

يعتمد نظام الإمتحانات في مدارس العزابة على المتابعة الدقيقة اليومية والأسبوعية للتلاميذ والطلبة، حيث التقييم المستمر فتكون النتائج إيجابية أكثر.

يقول الدكتور **عبد الرحمان حجازي** : " **ولو أن هذا النظام اتبع في مدارسنا حيث تشترك الإدارة بالتعاون مع الأساتذة، في التقييم المستمر للطلاب، فتتابع الإدارة الطلاب المقصرين، ويوجه المدير إنذارا للمعلم إذا وجد تلاميذه من الكسالى، لارتقى المستوى التعليمي والتعلمي في مدارسنا**"[56].

تبين من حديثنا السابق أن المجتمع الوارجلاني استطاع أن يؤسس لنفسه نظاما تعليميا محكما، جعله محل إعجاب المؤرخين والنقاد ،وتمكن من أن يصدر هذا النظام إلى مناطق أخرى وخاصة إلى "**وادي ميزاب**"، ولايزال هدا النظام يحافظ على كثير من معالمه في مناطق **ميزاب ووارجلان**.

لكن الملاحظ أن المجتمعات الإسلامية عموما نجدها اليوم عاجزة عن تفعيل أنظمة تعليمية أثبتت نجاعتها طيلة قرون، في المقابل نجدها تستورد تجارب مجتمعات أخرى.

لقد أدى النظام التعليمي المحكم الذي اعتمدته وارجلان في العصر الوسيط إلى تكوين مناخ فكري وثقافي أنتج عددا كبيرا من العلماء والفقهاء والمفكرين خلفوا آثارا ومؤلفات في مختلف فنون العلم والمعرفة، ما زالت تزخر بها المكتبات ودور الأرشيف الإسلامية والعالمية.

الهوامش :

1- هو **عبد الكافي بن أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل بن يوسف بن محمد التناوتي الوارجلاني** (ت قبل : 570هـ/1174م)، من علماء عصر الإزدهار العلمي بورجلان.

2 - **مجهول، سير أبي عمار الكافي**، نشر وتحقيق : مسعود مزهودي، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، ط01، 1417هـ/1996م، ص. 12

3 - **أبو الفضل بن القاسم بن إبراهيم البرادي**، (عاش في القرن 9هـ/15م)، **الجواهر المنتقاة فيما أخل به كتاب الطبقات**، طبعة حجرية، القاهرة (د.ت) ص. 207

4- لم يعد هذا النظام يطبق إلا في منطقة ميزاب ووارجلان

5- **إلياس حسين(أحمد)**، **الإباضية في المغرب العربي**، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى 1412هـ/1992م، السيب سلطنة عمان، ص 51

6 - البرادي، **مصدر سابق**، ص. 208

7 - البرادي، **نفس المصدر**، ص. 209

8 - البرادي، **نفسه**، ص. 211

9- البرادي، **مصدر سابق**، ص. 211

10 - إلياس حسين، **مرجع سابق**، ص. 53

11 - عبد الرحمان عثمان حجازي، **التربية الإسلامية في القيروان**، المكتبة العصرية، بيروت – لبنان، ط01، 1997م، ص. 392.

12 - عبد الرحمان عثمان حجازي، **نفس المرجع**، ص. 392

13 - حجازي، **مرجع سابق**، ص. 393

14- البرادي، **مصدر سابق**، ص. 214

15 - الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد)، **طبقات المشايخ بالمغرب**، حققه وقام بطبعه، ابراهيم طلاي، **(د.ت)**، ج2، ص. 399.

16 - إلياس حسين، **مرجع سابق**، ص. 57

17 - حجازي، **مرجع سابق**، ص. 395

18 - إلياس حسين، **نفس المرجع**، ص. 57

19 - حجازي، **نفس المرجع**، ص. 396

20 - يمكن مقارنتها بالمنح المالية التي تقدم لطلبة الجامعات في الفترة المعاصرة.

21 - إلياس حسين، **نفس المرجع**، ص. 60

22- إلياس حسين، **نفسه**، ص. 60

23 - حجازي، **مرجع سابق**، ص. 396

24 - حجازي، **نفس المرجع**، ص. 397

25 - حجازي، **نفسه**، ص. 398

26- حجازي، **مرجع سابق**، ص. 399

27 - البرادي، **مصدر سابق**، ص. 207

28- البرادي، **نفس المصدر**، ص. 208

29 - حجازي، **نفس المرجع**، ص. 404

30 - البرادي، **مصدر سابق**، ص. 209

31 - حجازي، **مرجع سابق**، ص. 409

32- البرادي، **مصدر سابق**، ص. 210

33- حجازي، **نفس المرجع**، ص. 412

34 - حجازي، **مرجع سابق**، ص. 414

35 - البرادي، **مصدر سابق**، ص. 212

36- حجازي، **نفس المرجع**، ص. 416

37- حجازي، **مرجع سابق**، ص. 418

38- لازالت هذه الطريقة متبعة في المجتمعات الإباضية، خاصة في ميزاب، وهي عبارة عن مجمعات قرآنية ا تهتم بتدريس التلاميد والطلبة كل ماله علاقة بكتاب الله.

39- حجازي، **مرجع سابق**، ص. 420

40 - البرادي، **مصدر سابق**، ص. 215

41- البرادي، **مصدر سابق**، 214

42 - البرادي، **نفس المصدر**، 215

43- حجازي، **مرجع سابق**، ص. 421

44- البرادي، **نفس المصدر**، ص. 216

45- حجازي، **نفس المرجع**، ص. 422

46 - البرادي، **مصدر سابق**، ص. 209

47- البرادي، **نفس المصدر**، ص. 210

48- البرادي، **نفسه**، ص. 217

49- حجازي، **مرجع سابق**، ص. 423

50- البرادي، **نفس المصدر**، ص. 208

51- حجازي، **نفس المرجع**، ص. 424

52 - كان لا يزال هذا النوع من التأديب يطبق إلى وقت قريب في منطقة ميزاب.

53- حجازي، **مرجع سابق**، ص. 425

54- حجازي، **نفس المرجع**، ص. 427

55- البرادي، **مصدر سابق**، ص. 208

56 - حجازي، **مرجع سابق**، ص. 427